تتعلم وأن تهضم النظرية وتنشىء الحزب ، وتتخذ الموقف الحازم مع الاشتراكية ضد الامبريالية .

ولقد بدأ صادق كتابه مؤكدا ان منهجه مختلف عن منهج الياس مرقص وانه لا يذهب مذهبه ، ولكنه في الحقيقة يتبنى المنهج ذاته ، ليتخطى الياس بعيدا على طريق الميثولوجيا الماركسية الحديثة ، او على طريق بسكويت ماري انطوانيت .

كيف ؟

لقد كان الياس من حيث المنهج ذاتيا وسطحيا وانتقائيا وأحادي الجانب فجاء صادق ليتبنى هذا المنهج ، وليعزز اقانيمه الثلاثة . الياس تبنى الاثافي الثلاث : الحرب النظامية ، الناصرية ، السلم مقابل : الحرب الشعبية ، رفض الاستسلام واستمرار القتال ، وجاء صادق ليتبنى أثافي ثلاثا أخرى ، بالطريقة نفسها ، هي : النظرية الثورية، الحزب ، الانحياز الى معسكر الاشتراكية ، مقابل كل شيء ، بعد أن جردها من كل مضمون ثوري ، ومن تماسها المباشر مع الواقع المحسوس .

وقد قاد هذا المنهج الذاتي السطحي الانتقائي الاحادي الجانب صادق جلال العظم الى الوقوع في مزالق التعميم والاجتزاء والاختزال والمغالطة. وسوف نضرب أمثلة واضحة على كل منها :

اولا : **التعميم** سنضرب هنا مثلين :

الاول : حول فكر المقاومة : ان عنوان الكتاب هو دراسة نقدية لفكر المقاومة . ويقول صادق في المقدمة « تطمح محاولتي الى تقديم تقييم نقدي لعدد من الافكار والاتجاهات والممارسات الرئيسية التي سادت في حركة المقاومة وسيطرت على عملها وخاصة في منظمة فتح » (ص ٧) . ولكن صادق ما يلبث ان يقول « ان اي تقييم لهذه المرحلة من الكفاح الفلسطيني لا بد ان ينصب بصورة رئيسية على فتح باعتبارها اهم منظمات العمل الفدائي وأكبرها ، وتشكيلها بالتالي العمود الفقري لحركة المقاومة ». ويضيف صادق الى ذلك ما يلي: « يبدو لي واضحا كل الوضوح ان استراتيجية فتح وبرامجها وتصوراتها الايديولوجية وممارساتها قد طبعت المرحلة المذكورة بطابعها الخاص ، واعطتها اتجاهها العام ولونها السياسي الغالب». ثم يحاول تبرير ذلك قائلا : « هذا الرأي ليس اجتهادا من عندي في تفسير الواقع الذي ساد وتحكم بمسيرة المرحلة المعينة ، بل هو مجرد اقرار غير منقوص بما تقوله منظمة فتح عن نفسها باصرار وشدة ، حيث تعتبر ان الثورة الفلسطينية معادلة لفتح لا اكثر ولا أقل » (ص ١٢) .

وصادق هنا يحاول ان يقنعنا بفكرة مسبقة فلا يجد المبررات المقنعة ، ولذلك يلوذ بفكرة ينسبها لفتح. ولكن هل هذا التعميم صحيح ؟

ان فتح هي « العمود الفقري » للمنظمات ، وهذه نظرة طرحت في بعض ادبيات فتح،ولكن هناك منظمات اخرى . وهذه المنظمات الاخرى لا تعترف بهذه الحقيقة ، لانها تطالب بالمساواة التامة في المجلس الوطني والمنظمات الشعبية . وهنالك لجنة تنفيذية لمنظمة التحرير فيها اثنان لفتح من عشرة اعضاء . ثم ان المنظمات ليس بالحجم ، وقد عودتنا المنظمات ان تضرب عرض الحائط بهذه النظرية التي يتبناها صادق ، فالمنظمة الكبيرة اليوم من يقول بأنها ستبقى كبيرة في المستقبل . والاراء والاتجاهات لا تقيم بحجم المنظمات فحسب . وفوق هذا ، فان المنظمات عودتنا ان تنظر الى فتح على انها تمثل الاتجاه اليميني المتخلف في الحركة الوطنية ، وعودتنا ان تنسب لنفسها انها تمثل الاتجاه الثوري الجذري البروليتاري . ولقد كان صادق ، وما زال، كما يبدو في كتابه ، من انصار هذا الرأي . فكيف يسمح لنفسه بأن يقيم حركة المقاومة من خلال فتح ؟ وكيف يرضى ان يفرض هذا التعميم على حركة المقاومة ؟ واذا كانت فتح قد فرضت منهجها وأسلوبها على المنظمات الاخرى ، وخاصة ممثلة الاتجاه الثوري الجذري البروليتاري ، الا يعني ذلك ان هذه المنظمات يجب ان « تقيم » حتى نرى كيف يفرض اليمين المتخلف فكره ومنهجه واسلوبه على اليسار الثوري الجذري البروليتاري ! وهكذا تبدو القضية واضحة ، فحين يبحث موضوع الوحدة الوطنية تصر المنظمات على التكافؤ في التمثيل ، وترفض نظرية العمود الفقري ، وحين يبحث فكر المقاومة في المجلات والجلسات يعتبر فكر فتح متخلفا ، وفكر المنظمات الاخرى متقدما ، وحين تستهدف ادانة فتح يصبح فكرها هو السائد .

ان صادقا لا يجيبنا على هذا كله . انه يكتفي بالقول في نهاية كتابه « ... ان منظمات مثل الجبهة الشعبية والجبهة الشعبية الديمقراطية قد برهنت عن عجز مزمن في القدرة على بناء نفسها تنظيميا وماديا ، وتدريب مناضليها وكوادرها ، ووضع استراتيجيتها وتكتيكاتها بصورة تتناسب مع